العرب
الإثنين 2020/01/06
السنة 42 العدد 11578

بعد ستين عاما على رحيله ألبير كامو مازال صوت الجزائر

تأثر كامو بشاعرية أندريه جيد وتلقى سهام جان بول سارتر

كاتب دعا إلى ثورة بلا عنف

بحلول الرابع من يناير من عام 2020 يكون قد مرّت ستون عاما على رحيل الكاتب والمفكر الفرنسي ألبير كامو، الذي كان محلّ جدل كبير في حياته ومماته، تاركا خلفه إرثا أدبيا وفكريا سيبقى شاهدا على حقبة غيّرت من وجه العالم، ومؤثّرا في جمالياته الواعية والعارية من كل تنميق.

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

في الرابع من شهر يناير 1960، مات ألبير كامو في حادث سيارة عبثي وهو في طريقه إلى باريس بصحبة ناشر كتبه غاستون غاليمار. وكان آنذاك في السابعة والأربعين من عمره.

> رجل يفكر مثل مونتاني، ويكتب مثل باسكال ويعيش شك العصر الحديث، يقدم لنا احتمال تمرد مقبول ومعقول

ورغم أنه نال جائزة نوبل للآداب عام 1957، فإنه كان عرضة للانتقادات والتهجمات من قبل كبار المثقفين الفرنسيين بسبب موقفه من حرب الجزائر وإدانته للعنف من الجانبين، من جانب الجيش الفرنسي ومن جانب جبهة التحرير الجزائرية.

مفكر جدلي

هاجم جون بول سارتر كامو بحدّة لا مثيل لها متهما إياه بـ"القصور" في المجال الفلسفي بعد أن أصدر كتابه "الرجل المتمرد" عام 1952، وعندما علم بنيله جائزة نوبل للآداب قال ساخرا "لقد سرقها!". وثمة مثقفون فرنسيون كبار آخرون اعتبروا كامو "كاتبا وفيلسوفا من الدرجة الثانية". مع ذلك ظلّ حيّا في القلوب وفي النفوس. ولا تزال رواياته خصوصا "الغريب" و"الطاعون" و"السقطة" و"الرجل الأول" تباع بالملايين من النسخ. ولا يزال كبار المُخرجين في العالم يُقبلون على تقديم مسرحياته.

كانت نصوص كامو التي تُدين العنف الثوري، والثورات الدموية التي تفضي إلى ظهور أنظمة استبدادية ودكتاتورية توزّع سريا في عواصم وجامعات بلدان أوروبا الشرقية خلال الحقبة الشيوعية.

وعن ذلك كتب جان دانيال يقول "لماذا كان المثقفون في كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والاتحاد السوفييتي يفضّلون كامو على تعاليم رايمون أرون المناهضة للماركسية؟ لأن كامو كان قد عرف البؤس، وناصر حركة المقاومة ضد النازية، وكتب عن العنف وعن الشرّ. ثم إن مثقفي البلدان الشرقية كانوا متمرّدين، وكانوا يخشون الثورة ويخافونها في حين كان تقديس الثورة والتاريخ في قلب مشاغل وهموم كامو الفكرية والفلسفية. إن هذا الرجل الذي كان يفكر مثل مونتاني، ويكتب مثل باسكال ويعيش شك العصر الحديث، يقدّم لنا احتمال تمرّد مقبول ومعقول".

وعندما قضى في الحادث الأليم المذكور، كان ألبير كامو يحمل معه مخطوط رواية جديدة حملت عنوان "الرجل الأول" وسوف تنشر هذه الرواية غير المكتملة بعد وفاته بـ34 عاما، وتحديدا عام 1994، وفيها ملامح من سيرته الذاتية. فنحن نعلم أنه ولد في السابع من نوفمبر 1913 في قرية قريبة من الحدود الجزائرية ـ التونسية. وكانت أمه من أصول إسبانية، وكانت شبه بكماء وأمية لذلك سوف يهدي لها رواية "الرجل الأول" على النحو التالي "إليك أنت التي لن تستطيعي أبدا قراءة هذا الكتاب". وأما والده لوسيان كامو فقد قتل في الأسابيع الأولى من الحرب الكونية التي اندلعت عام 1914. وفي "الرجل الأول" يتحدث بإسهاب عن والده الذي رحل عن الدنيا من دون أن يتعرّف عليه فعاش محروما من حنان الأبوة.

الرجل الأول

في الفصل الأول من الرواية، يتحدث كامو عن قدوم والده إلى الجزائر، وسفره إلى تلك القرية التي سوف تشهد مولده، في خريف عام 1913، وبدقة يصف لنا رحلة والده في عربة قديمة مصحوبا بزوجته الحامل وبعربي استقبله في مدينة عنابة. وعند الوصول إلى القرية تحس الزوجة بأوجاع المخاض فيسرع الزوج بالذهاب للبحث عن الطبيب.

ويختم كامو هذا الفصل بفقرة بديعة فيها يكتب قائلا "في ساعة متأخرة من الليل، مرتديا سروالا طويلا وثوبا مسردا، وممددا على حشية بالقرب من زوجته كان كورمري (الاسم الذي اختاره كامو لوالده في الرواية) ينظر إلى لهب النار وهو يرقص على السقف. كانت الغرفة قد رتبت تقريبا. ومن الناحية الأخرى لزوجته كان الطفل الوليد يستريح من دون ضجيج في السلة المخصصة للثياب. فقط أحيانا بعض القرقرات. كانت زوجته نائمة أيضا ووجهها باتجاهه وفمها مفتوح. كان المطر قد توقف في اليوم التالي، لا بد من الشروع في العمل. بالقرب منه، كانت اليد المنهوكة والمخشوشبة تقريبا، يد زوجته، تحدثه أيضا عن هذا العمل. مد يده ليضعها بلطف على يد المريضة ثم انقلب إلى الخلف وأغمض عينيه".

بعد مرور أربعين عاما على وفاة الأب ينطلق الابن الذي هو ألبير كامو لزيارة قبره في مقبرة "سان ـ بريوك" في شمال فرنسا. حدث ذلك في ظهيرة يوم ربيعي كانت فيه الشمس باهتة الضوء. ومن نافذة القطار كان الرجل ينظر إلى القرى البشعة وإلى الحقول التي كانت تتابع أمام عينيه. حال وصوله إلى "سان ـ بريوك" يترك الرجل حقيبته في الفندق، ثم يمضي إلى المقبرة، وهناك يعلم أن والده، كورمري هنري قتل في معركة "لا مارن" في 11 أكتوبر 1914.

وهنا يكتب كامو "منذ سنوات ومنذ أن استقر به المقام في فرنسا، ووالدته التي ظلت تقيم في الجزائر تطلب منه ما كانت تطلبه منه منذ أمد بعيد: أن يزور قبر والده الذي لم تزره هي أبدا. وهو يعتقد أن تلك الزيارة لا معنى لها بالنسبة إليه لأنه لم يعرف أبدا والده، ويجهل تماما كيف كان حاله ثم إنه يمقت الطقوس والمساعي التقليدية. كما أن أمه لم تتحدث أبدا عن الراحل ولم يكن باستطاعتها أن تتخيّل ما سوف يراه".

واقفا أمام القبر ينتبه الرجل الذي يدعى جاك كورمري، والذي هو ألبير كامو، إلى أن والده مات في سن أصغر من سنه عند تلك الزيارة الأولى لقبره. عندئذ غمرت قلبه موجة من الحنان والشفقة لا تجاه الأب فقط، وإنما تجاه الجندي الذي قتل وهو في ربيع العمر في حرب لم يكن يدري أسبابها، ولم يكن يعرف المتورطين في إشعالها. والآن لم تعُد السنوات تنتظم بحسب الترتيب الزمني وإنما هي تنفجر متحوّلة إلى دوّامات. وها الرجل ينظر ذاهلا إلى المقبرة التي امتلأت بجثث جنود قتلوا وهم في ريعان الشباب هم الذين كانوا آباء لأبناء أصبحوا الآن في سن الكهولة، وبدأ الشيب يغزو رؤوسهم.

وهنا يكتب كامو "هو لم يعُد الآن غير ذلك القلب المتوجّس الشره للحياة والمتمرّد على النظام القاتل للعالم، القلب الذي رافقه على مدى أربعين عاما، والذي لا يزال يضرب دائما بنفس القوة ضد الجدار الذي يفصله عن سر كل حياة، راغبا أن يذهب بعيدا، إلى ما وراء، ويعرف قبل أن يموت، يعرف أخيرا لكي يكون لمرة واحدة للحظة واحدة، لكن إلى الأبد".

في رواية "الرجل الأول" يتحدث ألبير كامو عن طفولته المعذبة في الجزائر، وعن الألعاب التي كان يمارسها مع أطفال الحي، وعن جدته القاسية التي كانت تضربه وتعنّفه عندما يأتي أعمالا وأفعالا خفية عنها. وعندما كان يتردد على المعهد الثانوي بـ"باب الواد" سنة 1924، عشق كامو البحر، وعنه سوف يكتب في ما بعد نصوصا رائعة نشرت ضمن كتابه "أعراس". وعندما بلغ سن المراهقة، بدأ يتردد على مكتبة خاله الذي كان جزارا، والتي كانت تحتوي على أمهات الكتب في جميع مجالات المعرفة.

وفي هذه المكتبة الكبيرة والثمينة سوف يقرأ "الأغذية الأرضية" لاندريه جيد، وسوف يتأثر بشاعرية صاحبها، وبنفسه الغنائي البديع. ومقتديا به سوف يكتب في ما بعد "حتى كل ثوراتي أضيئت بالنور. وكانت دائما تقريبا، وهذا ما أستطيع أن أقوله من دون غش، من أجل الخير للجميع، ومن أجل أن تسمو حياة كل الناس في النور. وليس من المؤكد أن يكون قلبي مُهيأ لمثل هذا النوع من الحب. غير أن الظروف ساعدتني. ولكي أصلح لا مبالاة طبيعية، وضعت في منتصف المسافة بين البؤس والشمس... إن الفقر لا يمنع من الاعتقاد بأن كل شيء على ما يرام تحت الشمس. وفي التاريخ. علمتني الشمس أن التاريخ ليس كل شيء. نعم لتغيير الحياة، لكن لا لتغيير العالم الذي جعلت منه آلهتي".

أبطال ورقيون يطلّون من «شرفة بيتهوفن»

القاهرة – "من شرفة بيتهوفن" للقاص والروائي هاني عبدالمريد "قصص الأحلام واللعب مع الخيال والفنتازيا والتفاصيل الصغيرة" هكذا يمكننا أن نصف هذه القصص الصادرة حديثا عن الدار المصرية اللبنانية، كما يمكننا أن نصفها بأنها قصص التفاصيل الغائبة عن وعينا في أيامنا المنقضية.

يكتب القاص بقلم شديد الثقة مما يلحظه ويفوت على الآخرين ببساطة مسجّلا تفاصيل مهمّشة مُلقاة على الأرض، أرض حياتنا اليومية، حيث يلتقطها عبدالمريد ويرصّعها، ليصنع منها لوحات قصصية شديدة الحساسية، لوحات عن الطموح الإنساني لبلوغ أقصى أهداف الحياة، ولوحات عن العجز والشيخوخة والفقد، وأخرى عن الموهبة واقتناص اللحظة المثالية للنجاح، وغيرها عن أبطال تخطّوا الكهولة ووقفوا على حافة الكبر، وهم يرون أحلامهم وأفكارهم ومشاعرهم تمضي أمام أعينهم.

هكذا هي شخصيات وعوالم قصص المجموعة في تشكّلها محاولة استحضار أمثلة إنسانية متنوعة بشكل كاشف.

نرى مثلا في القصة الأولى، رجلا على عتبات الخمسين، بطل لقصة فيها شابة لا يلحظ منها سوى شامة في جانب عنقها الخلفي، تستدعي عنده أحلام وتخيّلاته عن نساء أحبهن، ومنهنّ كاميليا حبيبة الملك فاروق، الممثلة الشابة التي لقيت مصرعها غدرا في حادث طائرة.

وفي قصة أخرى نجد أنفسنا بصدد بطل من الأحلام، لص يداهم شقة، فيكتشف خلوّها من أي مقتنيات ثمينة، لكنه يجد في إحدى حجراتها مكتبة، فيبدأ رحلته في صفحات كتبها المتراصة ككنز خفيّ لم يشهد مثله من قبل.

وفي قصة مختلفة يسرد عبدالمريد حكاية بطل رياضي، الذي كان كأرنب برّي، يحلم دائما بتحقيق المستحيل، حتى أنه يجتاز كل الخطوط، ويدهس في طريقه لتحقيق أحلامه كل عابر أمامه من الأشياء والبشر وغيره، لكن المجاز هنا هو الغالب على هذه القصة، إذ أن خواء حياة هذا البطل هو ما يجعله يرغب دائما في الدخول لمغامرة جديدة حتى لو كانت دهس الآخرين.

وفي قصة بعنوان "الرجل الموهوب" يحكي لنا عبدالمريد حكاية فنان مبدع يسائل موهبته، ويتذكر حادثا وقع له في طفولته، وتأثيره على أفكاره، وعبقريته، وهي قصة تتعامل مع التفاصيل الصغيرة، تفاصيل الطفولة بما تحتويه من حوادث ابتلعتها الذاكرة، وتدفعنا للتفكير والذهاب إلى رحلة عبر الأحلام نتذكر فيها مناطق زمنية وحكايات صارت هشة بفضل التراكمات الجديدة في الذاكرة.

وفي قصة "نظرة أخيرة على شارع هادئ" يلعب هاني عبدالمريد لعبة المراقب للحياة من شرفة، وكأنه يطلّ على الدنيا من العالم الآخر، إذ يقف بطله يراقب ارتكاب أحدهم لجريمة إنه البطل المرتفع عن الأرض، عن الحياة، وربما بطل لم يعُد ينتمي إلى هذا العالم، فيكتفي بالمشاهدة والمراقبة.

وحين يرفع الشخص الآخر الذي يقع عليه فعل المراقبة نظره إلى البطل الرئيسي، فيراه بينما يصوّب له هاتفه ليصوّر جريمته، وإذا بالمُراقب يصوّب له مسدسه، وحينما يطلق رصاصته، تصيب البطل في فكرته أو تصيبه في حبّ قديم.

> قصص «من شرفة بتهوفن» لهاني عبدالمريد تمرح مع الخيال والفنتازيا وتلعب مع التفاصيل الصغيرة

هكذا تظهر الشرفة في قصة هاني عبدالمريد، التي تمنح المجموعة نصف عنوانها "شرفة"، يطل منها بطل القصة، وربما باقي أبطال القصص، على عالم آخر لم يعُد أغلبهم ينتمي إليه، عالم الشباب، وعالم المراهقة، وعالم الطفولة.

وتبدو قصص المجموعة مرتبطة بخيط واهن، خيط رفيع يلفت انتباه القارئ رويدا رويدا كلما تقدّم في القراءة.

ونذكر أن هاني عبدالمريد أصدر أولى مجموعاته القصصية عام 2003، وأصدر روايته الأحدث عن الدار المصرية اللبنانية العام 2018، وبين هذين العامين، تُوِّج عبدالمريد بجائزة ساويرس الثقافية في الرواية العام 2009، وجائزة الدولة التشجيعية في الرواية العام 2017، والجائزة المركزية لوزارة الثقافة في القصة القصيرة العام 2002.

قصص بلجيكية تبحث عن الحب

بروكسل – تتناول المجموعة القصصية "كنا نتحدث عن الحب" للكاتب البلجيكي بنجامين دمان، الحياة اليومية لأشخاص قاسوا في حياتهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك.

وتتضمّن المجموعة 15 قصة، القاسم المشترك بينها أنها تبدو وكأنها تقول لنا "لكن أين ذهب الحب؟".

ويتتبع الكتاب حكاية أب يذهب للقاء ابنه بعد زمن طويل من الفراق، غير أن هذا الزمن الطويل ووجود الكثير من المسكوت عنه يجعلان من اللقاء المأمول أمرا مستحيلا رغم الخطوة الكبيرة التي قطعها الأب.

لا يضيّع المؤلف وقته في سرد تفاصيل القصة وأسباب الغياب الطويل، وإنما يفضّل الحديث عن تلك الليلة التي رغب فيها الأب برؤية ابنه واللحظة التي تبخّر فيها ما كان يبدو ممكنا، وبات ربط علاقات ضائعة من الصعوبة بمكان.

ويتذكر الأب صباح ذلك اليوم البارد حين كان يفتش في الدولاب بحثاً عن مهدئات الأسبرين، فيقول "سمعتها عند ظهري وعندما التفتّ ورأيت نظرتها. أدركَت الأمر على الفور. لقد ظلت صامتة ومدّت إليّ ورقة كتبتْ عليها ثلاثة أو أربعة سطور أخبرتني من خلالها أنّ كل شيء قد انتهى".

> قصص تبدأ من حكاية أب تتخلى عنه زوجته ويذهب باحثا عن ابنه لتصل إلى العلاقات البشرية المتشابكة

واسترسل المؤلف على لسان الأب "لم أحتفظ بالرسالة، لكنني أتذكر أنني قرأت أنها لم تعد تحبني، وقد أبكاني ذلك مثل الطفل الصغير. ومع ذلك، لم أحاول منعها. قد يبدو ذلك غريبا، لكنني فخور بتركي إياها تغادر بهذه الطريقة، فلديّ انطباع بأن تلك كانت الفرصة الأخيرة المتوفرة لدي لاحترامها بعد الكثير من القاذورات والأكاذيب".

ومن هنا تبدأ حكايات مختلفة لأشخاص مختلفين محورها الحب والفقد، في توازيهما كعالمين متناقضين.